ويقـول سبحـانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ .. (١٩٩) ﴾ [آل عمران]

وإلا ، فلماذا أسلم عبد الله بن سلام وغيره من علماء اليهود ؟

إذن : أهل الكتـاب الصادقـون مع أنفسهـم ومع كتبـهم لا بُدَّ أنْ يؤمنوا برسـالة محـمد ﷺ ، أما الذين لم يـؤمنوا فحجـبتـهم السلطة الزمنية والحـرص على السيادة التى كـانت لهم قبل الإسلام ، سـيادةً فى العلم ، وفى الحرب ، وفى الثروة .

وكان من هـؤلاء عبد الله بن أُبَـىٍّ ، وكان أهل المـدينة يستـعدون لتنصيبه ملكاً عليـهم ، فلما هاجر سيدنا رسول الله إليهـا أفسد عليهم ما يريدون ، ونزع منهم هذه السيادة ، والسلطة الزمنية حينما تتدخل تعنى أن يشترك هوى الناس فيستخدمون مرادات الله لخدمة أهوائهم ، لا لخدمة مرادات الله .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾

هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب إذا يُتْلَى عليهم القرآن قالوا : آمنا به ، وشَهدوا له أنه الحق من عند الله ، وأنهم لم يزدادوا بسماع آياته

(١) **سبب نزول الآية** : قال قتـادة : أنها نزلت فى عبد الله بن سـلام وتميم الدارى والجارود العبدى وسلمـان الفارسـى ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . [تفسـير القرطبى ٧/ ٥١٨٣] وقال القرطبى : ويدخل فيه من أسلم من علمـاء النصارى ، وهم أربعون رجلاً ، قدموا مع جعـفر بن أبى طالب المـدينة ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحـبشة ، وثمـانية نفـر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى ، منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردى .

إيماناً ، فهم كانوا من قبله مسلمين ، فقد آمنوا أولاً بكتبهم ، وآمنوا كذلك بالقرآن .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يُعلِّمنا أن الذى يريد ديناً حقاً لا بُدَّ أن ينظر إلى دين يأتى بعده بمعجزة ، لأنه إذا كان قد آمن حين جاء عيسى بأنه جاء بعد موسى ـ عليه السلام ـ فلا يستبعد عقلاً أنْ يجيء بعد عيسى رسول ، فوجب عليه أنْ يبحث فى الدين الجديد ، وأنْ ينظر أدلة تبرر له إيمانه بهذا الدين .

هذا إذا كان الدين الأول لم يتبدَّل ، فإذا كان الدين الأول قد تبدَّل ، فالمسألة واضحة ؛ لأن التبديل يُحدث فجوة عند مَنْ يريد ديناً ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ..** ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]

آمنوا به ؛ لأنهم وجدوا نَعْته ، ووجدوا العقائد التى لا تتغير موجودة فى كتابه ، وهو أُمىٌّ لم يعرف شيئاً من هذا ، فأخذوا من أميته دليلاً على صدْقه .

فقوله تعالى ﴿ **أُوْلَـٰئِكَ ..** ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص] أى : أهل الكتاب الذين يؤمنون بالقرآن وهم خاشعون لله ، والذين سبق وصفهم ﴿ **أُوْلَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ..** ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص] أجر لإيمانهم برسلهم ، وأجر لإيمانهم بمحمد ﷺ .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين :

رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وأدى حق أوليائه ، ورجل عنده أَمَة - جارية - فأدَّبها فأحسن تأديبها ، فأعتقها بعد ذلك ، ثم تزوجها »[1] .

وهؤلاء الذين آمنوا برسلهم ، ثم آمنوا برسول الله استحقوا هذه المنزلة ، ونالوا هذين الأجرين لأنهم تعرضوا للإيذاء مِمَّنْ لم يؤمن فى الإيمان الأول ، ثم تعرَّضوا للإيذاء فى الإيمان الثانى ، فصبروا على الإيذاءين ، وهذه هى حيثية ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤) ﴾ [القصص]

وكما أن الله تعالى يُؤتى أهلَ الكتاب الذين آمنوا بمحمد أجرهم مرتين ، كذلك يُؤتى بعض المسلمين أجرهم مرتين ، ومنهم - كما بيَّن سيدنا رسول الله : « عبد مملوك أدى حق الله ، وأدَّى حق أوليائه ، ورجل عنده أمَةٌ ... » .

ولا يُحرم هذا الأجر الدين الذى باشر الإسلام ، وأتى قبله ، وهو المسيحية ، فلهم ذلك أيضاً ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وأهم هذه المنافع ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] وذكر الحديد ، لأن منه سيصنع سلاح الحرب .

إذن : أنزل الله القرآن لمهمة ، وأنزل الحديد لمهمة أخرى ؛ لذلك يقول الشاعر :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٤) كتاب الإيمان من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه بنحوه .

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْىُ أوْ حَدُّ مُرْهَف   يُقيم ظباه[1] أخْدعَى[2] كلِّ مائل

فَهَـذا دَوَاءُ الـدَّاء من كُلِّ عَاقل   وذَاك دَوَاءُ الـدَّاء من كُلِّ جاهل

ولى أنا شخصياً ذكريات ومواقف مع هذه الآية ﴿أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤)﴾ [القصص] وقد كنا فى بلد بها بعض من إخواننا المسيحيين ، وكان من بينهم رجل ذو عقل وفكر ، كان دائماً يُواسى المسلمين ، ويحضر مآتمهم ويستمع للقرآن ، وكانت تعلَق بذهنه بعض الآيات ، فجاءنى مرة يقول : سمعت المقرئ يقرأ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]

فألسْنا من العالمين ؟ قلت له : نعم أُرسل محمد رحمة للعالمين جميعاً ، فمَنْ آمن به نالته رحمته ، ومَنْ لم يؤمن به حُرم منها ، ومع ذلك لو نظرتَ فى القرآن نظرة إمعان وتبصُّر تجد أنه رحم غير المؤمن ، قال : كيف ؟ فقرأتُ له قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥)﴾ [النساء] ولم يقل بين المؤمنين ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء]

فمن رحمة الرسول بغير المؤمنين أنْ يُنصف المظلوم منهم ، وأنْ يردَّ عليه حقَّه ، ثم ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦)﴾ [النساء] لأن الله لا يحب الخوَّان الأثيم ولو كان مسلماً .

ثم ذكرتُ له سبب نزول هذه الآية[3] وهى قصة الدرع الذى أودعه اليهودى زيد بن السمين أمانة عند طعمة بن أبيرق المسلم ،

---

(١) الظبة : حدّ السيف والسنان والنصل والخنجر وما إلى ذلك . [لسان العرب ـ مادة : ظبا] .

(٢) الأخدعان : عرقان فى جانبى العنق قد خفيا وبطنا . وقال اللحيانى : هما عرقان فى الرقبة. [لسان العرب ـ مادة : خدع] .

(٣) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٠٣) ـ طبعة المكتبة الثقافية بيروت .

وكان الدرع قد سُرِق من قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة ذهب يبحث عنه ، وكان قد وضعه فى كيس من الدقيق ، فتتبع أثر الدقيق حتى ذهب إلى بيت زيد بن السمين اليهودى فاتهمه بسرقته ، وأذاع أمره بين الناس ، فقصَّ اليهودى ما كان من أمر طُعْمة بن أبيرق ، وأنه أودع الدرع عنده على سبيل الأمانة ؛ لأنه يخشى عليه أنْ يُسرق من بيته .

وهنا أحب المسلمون تبرئة صاحبهم ؛ لأنه حديث عهد بإسلام ، وكيف ستكون صورتهم لو شاع بين الناس أن أحدهم يسرق ، ومالوا إلى إدانة اليهودى ، وفعلاً عرضوا وجهة نظرهم هذه على رسول الله ليرى فيه حلاً يُخرجه من هذا المأزق ، مع أنهم لا يستبعدون أنْ يسرق ابن أبيرق[1] .

وجلس رسول الله يفكر فى هذا الأمر ، لكن سرعان ما نزل عليه الوحى ، فيقول له : هذه المسألة لا تحتاج إلى تفكير ولا بحث : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)** ﴾ [النساء]

فأدانت الآية ابن أبيرق ، ودلَّتْ على أن هذه ليست الحادثة الأولى فى حقِّه ، ووصفتْه بأنه خوّان أى : كثير الخيانة وبرَّأتْ اليهودى ، وصححتْ وجهة نظر المسلمين الذين يخافون من فضيحة المسلم بالسرقة ، وغفلوا عن الأثر السيء لو قلبوا الحقائق ، وأدانوا اليهودى .

(١) قال ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٢٨٥/٣) (ترجمة ٤٢٢٨) : « ذكره أبو إسحق المستلمى فى الصحابة وقال : شهد المشاهد كلها إلا بدراً .. وقد تُكلِّم فى إيمان طعمة » .

فالآية وإنْ أدانت المسلم ، إلا أنها رفعتْ شأن الإسلام فى نظر الجميع : المسلم واليهودى وكل من عاصر هذه القصة بل وكل من قرأ هذه الآية ، ولو انحاز رسول الله وتعصَّب للمسلم لاهتزتْ صورة الإسلام فى نظر الجميع . ولو حدث هذا ماذا سيكون موقف اليهود الذين يراودهم الإسلام ، وقد أسلموا فعلاً بعد ما حدث ؟

وما أشبهَ هذه المسألة بشاهد الزور الذى يسقط أول ما يسقط من نظر صاحبه الذى شهد لصالحه ، حتى قالوا : مَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعَنْتَه على أمره ، فشاهد الزور يرتفع رأسُك على الخصم بشهادته ، وتطأ قدمُك على كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٥٤) ﴾ [القصص] هذه أيضاً من خصالهم أن يدفعوا السيئة بالحسنة ، فمن صفاتهم العفو والصفح كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) ﴾ [القصص] النفقة الواجبة على نفسه وعلى آله ، والنفقة الواجبة للفقراء وهى الزكاة ، ثم نفقة المروءات للمساكين وأهل الخصاصة .

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَٰهِلِينَ (٥٥) ﴾

هذه صفة أخرى من صفات المؤمنين ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ .. (٥٥) ﴾ [القصص] واللغو : هو الكلام الذى لا فائدةَ منه ، فلا ينفعك إنْ سمعتَه ، ولا يضرك عدم سماعه ، وينبغى على العاقل أنْ يتركه ، فهو حقيق أنْ يُترك وأنْ يُلْغى .

ولذلك كان من صفات عباد الرحمن : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان] أى : لا يلتفتون إليه .

وسبب نزول هذه الآية[1] : لما استقبل رسول الله ﷺ رُسُل النجاشى وكانوا جماعة من القساوسة ، فلما جلسوا أسمعهم سورة (يس) ، فتأثروا بها حتى بكَوْا جميعاً ، ثم آمنوا برسول الله ، ولما انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم وقال : خيَّبكم الله من ركْب - وهم الجماعة يأتون فى مهمة - أرسلكم من خلفى - يعنى : النجاشى - لتعلموا له أخبار الرجل ، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتُم ، والله ما رأينا ركْباً أحمق منكم ، فما كان منهم إلا أنْ أعرضوا عنه .

هذا معنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ .. (٥٥) ﴾ [القصص]

وهؤلاء مرُّوا باللغو مرورَ الكرام ، وأعرضوا عنه ، فلم يلتفتوا إليه ، وزادوا على ذلك أنهم لم يسكتوا على اللغو إنما قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ [القصص] لنا أعمالنا الخيِّرة التى يجب أنْ نُقبل عليها ، ولكم أعمالكم الباطلة التى ينبغى أنْ تُترك ، فكلٌّ منَّا له شأن يشغله .

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. (٥٥) ﴾ [القصص]والسلام إما سلام تحية كما هو شائع بيننا ، وإما سلام للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك فى جدل ، فلما رأيتَ أنه سيطول وربما تعدَّيْتَ عليه فتقول له تاركاً : سلام عليكم . تعنى : إننى ليس لدىَّ ما أقوله لمفارقتك إلا هذه الكلمة .

ومن ذلك ما دار بين الخليل إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة

(١) قاله سعيد بن جبير فيما أورده عنه ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٩٣) وقاله عروة بن الزبير فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٨٣) وعزا ابن كثير القصة لمحمد بن إسحاق فى السيرة .

والسلام - وبين عمه ، فبعد أنْ ناقشه ولم يَصل معه إلى نتيجة قال له :﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. (٤٧) ﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾

هذا خطاب لسيدنا رسول الله ، خاصٌّ بدعوته لعمه أبي طالب الذى ظلَّ على دين قومه ، ولكنه كان يحمى رسول الله حماية عصبية قربى وأهل ، لا محبة فى الإسلام ، ولله تعالى حكمة فى أنْ يظلَّ أبو طالب على الكفر ؛ لأنه بذلك كسب قريشاً ونال احترامهم ، حيث أعجبهم عدم إيمانه بمحمد وعدم مجاملته له ، وأعجبهم أن يظل على دين الآباء ، فاحترموا حمايته لابن أخيه ، وهذا منع عن رسول الله إيذاءهم ، وحمى الدعوة من كثير من الاعتداءات عليها .

لذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً على أنْ يردَّ له هذا الجميل ، وردُّ رسول الله للجميل لا يكون بعرَض من الدنيا ، إنما بشيء باقٍ خالد ، فلما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله ﷺ : « يا عم ، قُلْ لا إله إلا الله كلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة »

---

(١) سبب نزول الآية : قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع المفسرون أنها نزلت فى أبى طالب . ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٤) .

وقاله ابن عباس (أخرجه ابن مردويه) ، وابن عمر (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود فى القدر) ، وقتادة (أخرجه عبد بن حميد) أورد كل هذه الأقوال السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٢٩) .

فقال : يا ابن أخى ، لولا أن قريشاً تُعيِّرنى بهذه الواقعة ، ويقولون ما آمن إلا جزعاً من الموت لأقررت عينك بها[1] .

لكن يُرْوى أنه بعدما انتقل أبو طالب ، جاء العباس إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا محمد ، إن الكلمة التى طلبتَ من عمِّك أنْ يقولها قالها قبل أن يموت وأنا أشهد بها .

ونلاحظ هنا دقة الأداء من العباس ، حيث لم يقُلْ : إن هذه الكلمة لا إله إلا الله ، بل سماها (الكلمة) لماذا ؟ لأنه لم يكن قد أسلم بعد .

وسبق أنْ تكلَّمنا فى معنى الهداية ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ .. (٥٦) ﴾ [القصص] وقلنا : إنها تأتى بأحد معنيين : بمعنى الإرشاد والدلالة ، وبمعنى المعونة لمن يؤمن بالدلالة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] أى : سمعوا الدلالة وأطاعوها ، فزادهم الله هدايةً أخرى ، هى هداية الإيمان والمعونة .

يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [فصلت] يعنى : دللناهم ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت] ؛ لذلك حُرموا هداية المعونة .

إذن : الهداية المنفية عن سيدنا رسول الله ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ .. (٥٦) ﴾ [القصص] هى هداية المعونة والتوفيق للإيمان ؛ لأنه ﷺ هدى الجميع هدايةَ الدلالة والإرشاد ، وكان مما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥) كتاب الإيمان ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٤٤) ، والواحدى فى « أسباب النزول » ص ١٩٤ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فهداية الدلالة صدرت أولاً عن الله تعالى ، ثم بالبلاغ من رسوله ﷺ ثانياً .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾

وهذه المقولة ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ .. ٥٧﴾ [القصص] قالها الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ، فقد ذهب إلى سيدنا رسول الله ، وقال : إننا نعلم أنك جئتَ بالحق ، ولكن نخاف إنْ آمنا بك واتبعنا هواك أنْ نُتخطَّف من أرضنا ، ولابُدَّ أنه كان يتكلم بلسان قومه الذين ائتمروا على هذا القول .

والخطْف : هو الأخْذ بشدة وسرعة .

إذن : فهم يُقرُّون للرسول بأنه جاء بالحق ، وأنه على الهدى ، لكن علة امتناعهم أنْ يُتخطفوا ، وكان عليهم أنْ يقارنوا بعقولهم بين أن يكونوا مع رسول الله على الحق وعلى الهدى ويُتخطَّفوا ، وبين أنْ يظلُّوا على كفرهم .

فقصارى ما يصيبهم إنْ اتبعوا رسول الله أن يتخطفهم الناس في

(١) سبب نزول الآية : قال الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٤) : « نزلت فى الحارث بن عثمان بن عبد مناف ، وذلك أنه قال للنبى ﷺ : إنَّا لنعلم أن الذى تقول حقّ ، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .. قاله ابن عباس فيما أورده عنه القرطبى فى تفسيره (٥١٨٦/٧) .

أمـوالهم أو فى أنفـسـهم - على فـرض أن هذا صـحـيح - قصـارى ما يصيبهم خسارة عَرَض فانٍ من الدنيا لو استمر لك لتمتعتَ به مدة بقائك فيها ، وهذا الخير الذى سيفوتك من الدنيا محدود على مقتضى قوة البشـر ، ولا يضيرك هذا إنْ كنتَ من أهل الآخرة حـيث ستذهب إلى خير بَاقٍ دائم ، خير يناسب قدرة المنعم سبحانه .

أمـا إنْ ظلُّوا على كـفـرهم ، فـمـتـاع قليل فى الدنيـا الفـانيـة ، ولا نصـيبَ لهم فى الآخرة البـاقـية . إذن : فـأىُّ الطريق أهدى ؟ إن المقارنة العقلية ترجح طـريق الهدى واتباع الحق الذى جاء به رسـول الله ، هذه واحدة .

ثم مَنْ قـال إنكـم إن اتبـعـتم الهـدى مع رسـول الله تُـتـخطَّفـوا وتُضطهـدوا ؟ لذلك يرد الله عليهم : قُلْ لهم يا مـحمد : كـذبتم ، فلن يتخطفكـم أحد بسـبـب إسلامكم : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

فقد أنعم الله عليكم وأنتم كافرون مـشركون به ، تعبدون الأصنام فى جاهلية ، ومكَّن لكم حياة آمنة فى رحـاب بيته الحرام ، ووفَّر لكم رَغَد العيش وأنتم بوادٍ غير ذى زرع حـيث يُجْبى إليه الثمرات من كل مكان ، فالذى صنع مـعكم هذا الصنيع أيترككم ويتـخلى عنكم بعد أنْ آمنتم به ، واهتديتم إلى الحق ؟ كيف يكون منكم هذا القياس ؟

ومعنى : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ ..(٥٧) ﴾ [القصص] استـفـهـام للتـقـرير ، فاسألهم وسوف يعترفون هم أن الله مكَّن لهم حرماً آمناً يُجبَى إليه ثمرات كل شىء ، فالحق سبحانه يريد أنْ يثبت هذه القضية بإقرارهم بها .

ومعنى ﴿ نُمَكِّن لَّهُمْ .. (٥٧) ﴾ [القصص] نجعلهم مكينين فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [يوسف] والتمكين

يدل على الثبات ؛ لأن ظرف المكان ثابت على خلاف ظرف الزمان .

وقال : ﴿ حَرَمًا آمنًا ..(٥٧)﴾ [القصص] مع أن الأمن لمن فى المكان ، لكن أراد سبحانه أن يُؤَمِّن نفس المكان ، فيكون كل ما فيه آمناً ، حتى القاتل لا يُقتصّ منه فى الحرم ، والحيوان لا يُثار فيه ولا يُصاد ، والنبات لا يُعضد حتى الحجر فى هذا المكان آمن ، ألاَ تراهم يرجمون حجراً فى رمى الجمرات فى حين يُكرِّمون الحجر الأسود ويُقبِّلونه .

وحينما نتأمل الحرم منذ أيام الخليل إبراهيم - عليه السلام - نجد أن له خطة ، وأن الحق سبحانه يُعدُّه ليكون حرماً آمناً ، فلما جاءه إبراهيم قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم]

هذا يعنى أن المكان ليس به من مقومات الحياة إلا الهواء ، لأن نفى الزرع يعنى عدم وجود الماء ؛ لذلك اعترضت السيدة هاجر على هذا المكان القفر ، فلما علمتْ أنه اختيار الله لهم قالت : إذن لن يضيعنا[1] .

وقد رأتْ بنفسها أن الله لم يُضيِّعهم ، فلما احتاجت الماء لترضع وليدها وسعتْ فى طلبه بين الصفا والمروة سبعة أشواط على قَدْر ما أطاقتْ لم تجد الماء فى سَعْيها ، ولو أنها وجدته لكان سعيها سبباً إنما أراد الله أنْ يُصدِّقها فى كلمتها ، وأن يثبت لها أنه سبحانه لن يُضيِّعهم من غير أسباب لتتأكد أن كلمتها حق ، ثم شاءتْ قدرة الله أن

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس من حديث طويل ، وفيه أن إبراهيم جاء بهاجر وابنها إسماعيل - وهى ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ، فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يُضيِّعنا » .

يخرج الماء من تحت قدم الوليد ، وهو يضرب بقدمه الأرض ، ويبكى من شدة الجوع والعطش ، وانبجستْ زمزم .

ولما أسكن إبراهيم أهله فى هذا المكان المقْـفر أراده لهم سكناً دائماً ، لا مجرد استراحة من عناء السفر ؛ لذلك قال :﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وكأنه - عليه السلام - يريد أن يطمئن على إقامة أهله فى هذا المكان ، وأن يكون البيت مُصلَّى لله ، لا تنقطع فيه الصلاة ، وهذا هو الفرق بين بيت الله باختيار الله وبيت الله باختيار عباد الله .

فالبيت الذى نبنيه لله تعالى قد يُغلق حتى فى أوقات الفروض ، أما بيت الله الذى اتخذه لنفسه فلا يخلو من الطواف والصلاة فى أىِّ وقت من ليل أو نهار ، ولا ينقطع منه الطواف إلا لصلاة مكتوبة ، فإذا قُضيتْ الصلاة رأيتهم يُهرعون إلى الطواف .

وقد رأيت الحرم فى إحدى السنوات وقد دهمه سيل جارف حتى ملأ ساحته ، ودخل الماء الكعبة وغطَّى الحجر الأسود ، فكان الناس يطوفون سباحة ، ورأينا أناساً يغطسون عند الحجر ليُقبِّلوه ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يظلَّ الطواف حول بيته لا ينقطع على أىِّ حال .

كذلك نفهم من قوله تعالى ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ..(٣٧) ﴾ [إبراهيم]

من الفعل هَوَى يهوى ، يعنى : سقط ؛ لأن الذى يسقط لا إرادةَ له فى عدم السقوط ، كذلك مَنْ يأتى بيت الله أو يجلب إليه الخيرات يجد دافعاً يدفعه كأنه لا إرادة له .

كما نفهم منها معنى آخر ، فكل تكاليف الحق سبحانه ربما

تكاسل الناس فى أدائها ، فمنّا مَنْ لا يصلى أو لا يُزكّى . إلا الحج حيث قال الله فيه :﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً .. (٢٧) ﴾ [الحج] فمجرد أن تؤذن يأتوك .

لذلك نجد من غير القادرين على نفقات الحج من يجوع ويُمسك على أهله ليوفّر تكاليف الحج ، فهو - إذن - الفريضة الوحيدة التى يتهافت عليها مَنْ لم تطلب منه .

ونلحظ أن إبراهيم - عليه السلام - دعا بالأمن للحرم مرتين : مرة فى قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] يعنى : اجعل هذا المكان بلداً آمناً ، كأىّ بلد آمن لا تُقام إلا فى مكان يُؤَمَّنون فيه كل مُقوِّمات الحياة ، فأىّ بلد لا تُبنى حتى من الكافر إلا إذا كان آمناً فيها ، فالطلب الأول أنْ يتحول هذا المكان الخالى إلى بلد آمن ، كما يأمن كل بلد حين ينشأ ، وهذا أمن عام .

ثم يدعو مرة أخرى ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِناً .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] بعد أن أصبحتْ مكة بلداً آمناً يطلب لها مزيداً من الأمن ، وهذا أمن خاص ، حيث جعلها بلداً حراماً ، يأمن فيها الإنسان والحيوان والنبات ، بل والجماد .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى :

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

وقالوا : أين هذا الأمن ، وقد حدث فى الحرم الاعتداء والقتل وترويع الآمنين ، كما حدث فى أيام القرامطة لما دخلوا الحرم ، وقتلوا الناس فيه ، وأخذوا الحجر ، وفى العصر الحديث نعرف حكاية جهيمان ، وما حدث فيها من قَتْل فى الحرم .

وهذه الآية : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] جملة خبرية غرضها الأمر والحثّ ، كأنه تعالى قال : أمِّنوا من دخل الحرم . وهذه ليست قضية كونية ، إنما قضية شرعية ، وفَرْق بين القضيتين : الكونية لابُدَّ أن تحدث ، أما الشرعية فأمر ينفذه البعض ، ويخرج عليه البعض ، فمَنْ أطاع الأمر الشرعى لله وأراد أنْ يجعل أمر الله صادقاً يُؤمِّن أهل الحرم ، ومَنْ أراد أنْ يكذِّب ربه يهيج الناس ويروعهم فيه .

ومن الآيات التى كثيراً ما يُسأل عنها فى هذا الصدد قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ .. (٢٦) ﴾ [النور] يقولون : كثيراً ما يتزوج خبيث من طيبة ، أو طيبة من خبيث ، فالواقع لا يتفق مع الآية . نقول أيضاً هنا : هذه قضية شرعية تحمل أمراً قد يُطاع وقد يُعْصَى ، وليست قضية كونية لا بُدَّ أنْ تأتى كما أخبر الله تعالى بها ، ولا يتخلَّف مدلولها .

فالمعنى فى الآية : إن زوجتُم فزوِّجوا الخبيث للخبيثة ، والطيب للطيبة ؛ ليتحقق التكافؤ بين الزوجين ويحدث بينهما الوفاق ، حتى إنْ عيَّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أنْ تردَّ عليه ، لابُدَّ من وجود التكافؤ حتى فى (القباحة) ، وإلا فكيف تفعل الطيبة مع الخبيث ، أو الخبيث مع الطيبة ؟

إذن : فالآية وأمثالها قضية شرعية فى صيغة الخبر ، وإنْ كانت تعنى الأمر ، كما تقول عن الميت : رحمه الله بصيغة الماضى ، وأنت لا تدرى رحمه الله ، أو لم يرحمه ، إذن : لا بُدَّ أن المعنى دعاء : فليرحمه الله ، قلتها أنت بصيغة الماضى ، رجاء أن تكون له الرحمة .

نعود إلى قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا .. (٥٧) ﴾ [القصص]

ونلحظ هذا التمكين وهذا الأمن فى قصة الفيل ، حيث جاء أبرهة ليهدم الكعبة ، ويتقدّم الجيش فيل ضخم يقال له محمود ، فلما قالوا فى أذنه (ابْرُكْ محمود وارجع راشداً)(1) يعنى : انفد بجلدك (فإنك ببلد الله الحرام) فبركَ الفيل واستجاب .

ثم جاءت معركة الطير الأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . هذا كله من الأمن الذى جعله الله لقريش سكان حرمه ؛ لتظل الكعبة مسكونة بهم ، وما داموا هم سكان الحرم والناس تأتيهم من كل الأنحاء للحج كل عام ، فسوف يظل لهم الأمن بين القبائل ، ولا يجرؤ أحد على الاعتداء عليهم ، أو التعرُّض لقوافلهم فى رحلة الشتاء والصيف ، وأيّ أمن ، وأيُّ مهابة بعد هذا ؟

ومع الحجيج يُجلب الطعام وتُجلب الأرزاق ، وصدق الله العظيم :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وكيف بعد هذا الأمن والأمان يخاف مَنْ يؤمن بمحمد أنْ يُتخطَّف من أرضه ؟ إنها مقولة لا مدلولَ لها .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥٨) ﴾

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٥٢/١) ، والذى قال للفيل : ابرك . هو نفيل بن حبيب الخثعمى . وفيه « أنهم ضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوه فى رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فادخلوا محاجن (المحجن : عصا مُعقّفة الرأس) لهم فى مراقّه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن . فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك » .